



رابطة خطباء الشام

Sham Khotaba Association

مقدمة:

إذا رأَسَ النَّاسَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا عَائِلًا، فَصَارَ ملْكًا عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُادُ يَعْطِي النَّاسَ حَقَوْقَهُمْ، بَلْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَولَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ، وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا جَاهَلًا جَافِيًّا، فَسَدَ بِذَلِكَ الدِّينِ؛ لَأَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ هَمَّةٌ فِي إِصْلَاحِ دِينِ النَّاسِ وَلَا تَعْلِيمِهِمْ، بَلْ هِمَّتْهُ فِي جَبَائِيَّةِ الْمَالِ وَاكْتِنَازِهِ، وَلَا يُبَالِي بِمَا فَسَدَ مِنْ دِينِ النَّاسِ، وَلَا بِمَنْ ضَاعَ مِنْ أَهْلِ حَاجَاتِهِمْ.

وَقَالَ الشَّعُوبِيُّ: "لَا تَقْوُمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ جَهَلًا، وَالْجَهَلُ عِلْمًا".

1- خيانة من ولَى غيرَ كفءٍ مع وجود الكفاءة

إنَّ إِسْنَادَ الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِهَا أَمَانَةٌ فِي عَنْقِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فَإِذَا مَا أَسْنَدَهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، مَعَ وُجُودِ أَهْلِهَا، فَقَدْ خَانَ تَلْكَ الْأَمَانَةَ.

وقد أمر الله سبحانه بأداء الأمانات، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعَماً يَعْظِمُ كُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا} [التيساء 58].

قال ابن تيمية رحمة الله تعالى: "أما أداء الأمانات ففيه نوعان: أحدهما الولايات، وهو كان سبب نزول الآية، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، وَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحُ الْكَعْبَةِ مِنْ بَنِي شَيْبَةَ، طَلَبَهَا مِنْهُ شَيْبَةُ، لِيَجْمِعَ لَهُ بَيْنَ سَقَايَةِ الْحَاجِ وَسَدَانَةِ الْبَيْتِ.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَفَعَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ إِلَى بَنِي شَيْبَةَ.. فَيَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَوْلِيَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِّنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلَحَ مِنْ يَجْدِه لِذَلِكَ الْعَمَلِ" [١]

وكما أمر الله سبحانه بأداء الأمانة إلى أهلها، فإنه نهى عن الخيانة التي تتضمن إسناد الأمر إلى غير أهله.. كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَاناتِكُمْ وَإِنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال 27].

ومن أعظم الخيانات إسناد الأمور إلى غير أهلها، لما في ذلك من الظلم للأكفاء بعدم وضعه في موضعه وإسناد الأمر إليه، ولغير الأكفاء الذي أُسنّد إليه الأمور وهو غير قادر على القيام بها، وللأمة التي تصطلي بثار التّدابير السّيئة الصّاردة من غير الأكفاء، ولو لولي الأمر نفسه الذي أُسند الأمر إلى غير أهله.. فهو يتحمّل إثم إسنادها إلى غير أهلها.. وإن حرمان الكفاء مما يجب أن يُسند إليه.. وإن ضرر الأمة من تدبير غير الكفاء السيء.

2- الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة

وهكذا الرجل الكفاء يأمنه ولـي الأمر الذي اختاره، وتأمنه الأمة على ضروراتها ومصالحها، أما غير الكفاء فهو شبيه بالإبل الكثيرة التي يلتمس الراكب منها واحدة صالحة فلا يجدها.. وهكذا البشر الذين ليسوا أكفاء كثيرون.. روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الناس كأبـل مائة لا يوجد فيها راحلة) [2]

3- أسباب اختفاء غير الكفاء مع وجود الكفاءة

إن السبب الرئيس في كل ما يخالف أمر الله تعالى هو اتباع الهوى الذي يُرجح عند فاقد الإيمان أو ضعيفه، ما يهواه هو على ما يحبه الله ورسوله، كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضْلَلَ مِنْ إِيمَانِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [آل عمران: 17]

وإذا غلب على المرء اتباع هواه أرداه في مهاوي الهاك وهو يظن أنه يبني لنفسه المجد الشامخ.. ومظاهر اتباع الهوى تتجلى في اختيار قريبه، وإن كان جاهلاً ضعيفاً خائناً، كابنه وأخيه ونحوهما، أو صديقه مجاملة له، وتعاوناً معه على محاباة كل منهما الآخر. أو لاتفاق في الهوى والصفات، كأن يكون أحدهما يميل إلى اللين أكثر، فيختار من يوافقه في هذه الصفة؛ لأنَّه بلينه الزائد قد ألف نمطاً معيناً من معاملة الناس، والشديد قد يغير من ذلك النمط.. أو يكون شديداً عنيفاً، ألف البطش بالناس، وعدم الرحمة واللين وطلقة الوجه مع رعيته، فيختار من يوافقه على ذلك، حتى تصبح رعيته ذليلة لا تعصي له أمراً وإن كان فيه هلاكها.

من شدته، وبذلك تعتمد الأمور.

قال ابن تيمية رحمة الله: "لأنَّ المتأولُ الكبيرُ إذا كانَ خلقه يميلُ إلى اللينِ، فينبغي أن يكونَ خلق نائبه يميلُ إلى الشدةِ، وإذا كانَ خلقه يميلُ إلى الشدةِ، فينبغي أن يكونَ خلق نائبه يميلُ إلى اللينِ ليعتمدُ الأمر".

ولهذا كانَ أبو بكر الصديق يؤثر استنابةَ خالدٍ، وكانَ عمرٌ يؤثر عزلَ خالدٍ واستنابةَ أبي عبيدةَ بنَ الجراح، لأنَّ خالداً كانَ شديداً، كعمر ابن الخطاب، وأبا عبيدةَ كانَ ليناً، كأبي بكر، وكانَ الأصلحُ لكلِّ منها أنْ يولي من ولاه ليكونَ أمره معتدلاً. فظهورُ بهذا أنَّ ولِيَ الأمْرِ الذي ي يريد للأمةِ الخيرَ يولي من يخالفه في بعض صفاتِه، لما يرى في مخالفته له من المصالح العامة وأنَّ صاحبَ الهوى لا يولي إلاَّ الذي يوافقه في صفاتِه التي تحققُ له مصالحه الخاصة، وإنْ كانَ فيها ضررٌ على عامة الناس..

وقد يكون اختياره لغير الكفاء؛ لأنَّه من بلده أو من جنسه، أو يتكلُّمُ بلغته، أو يوافقه في مذهبِه أو طريقِه، وقد يترك الكفاءة حسداً له، أو لما بينهما من عدم الانسجام أو غير ذلك.

ولهذا قال ابن تيمية رحمة الله: "إِنْ عَدَلْتُ عَنِ الْأَحْقَاقِ الْأَصْلَحَ إِلَى غَيْرِهِ، لِأَجْلِ قِرَابَةِ بَيْنِهِمَا أَوْ لَوَاءِ أَوْ عَتَاقَةِ أَوْ صِدَاقَةِ أَوْ موافَقَةِ فِي بَلَدِهِ أَوْ مِذَهَبِهِ، أَوْ طَرِيقَةِ، أَوْ جِنْسِهِ، كَالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارَسِيَّةِ، وَالْمُرْكَبَةِ، وَالْمُرْوَمَيَّةِ، أَوْ لِرِشْوَةِ يَأْخُذُهَا مِنْ مَالِهِ أَوْ مَنْفَعَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَوْ لِضَغْفِنِ فِي قَلْبِهِ عَلَى الْأَحْقَاقِ، أَوْ عَدَاوَةِ بَيْنِهِمَا، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ.. وَدَخَلَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأُولَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأనفال: 27-28].

فإنَّ الرجل لحبه لولده، أو لعيقه، قد يؤثُرُه في بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه، فيكون قد خانَ أمانَته، وكذلك قد يؤثُرُه في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه، أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خانَ الله ورسوله وخانَ أمانَته" [3]

وقد يختار غير الكفاء لموافقتِه له في الفسق، من أجل أن يعينه على فسقه، أو لأنَّهما ظالمان، ويريدُه أن يعينه على ظلمِه، أو غير ذلك من الأسباب، وكلها أسباب لا تخوله أن يختار غير الكفاء ويترك الكفاء، لما في ذلك من الخيانة..

4- أيٌ رفعٌ ينشدها المسلمون في ظلٍّ غياب الأمانة؟!

الإسلام دين النّزاهة والأمانة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فأمانة المسؤول أمانة عظيمة، لا اختيار الأصلح لكل عمل، دون مراعاة لأحد، ولا محاباة لفرد من الأفراد، دون تقدير لشعور قريب أو صديق، فلن يجادل عن المفترض أحد يوم القيمة، بل سيقاسي ألوان العذاب بسبب تفريطِه في الأمانة وتضييعه لها، وسيكون جلساً وحدها على العذاب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَيُلْلَهُ لِلْأَمْرَاءِ، وَيُلْلَهُ لِلْعُرْفَاءِ، وَيُلْلَهُ لِلْأَمَانَاءِ، لَيَنَمَّنَنَ أَفْوَامُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّ نَوَائِبَهُمْ كَانَتْ مُعْلَفَةً بِالْتُّرْبَى، يَنَذَبُّونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ) [4]

وفي الحديث: (أَيُّمَا رَجُلٌ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عَشَرَةِ أَنْفُسٍ، عَلِمَ أَنَّ فِي الْعَشَرَةِ أَفْضَلَ مِمَّنِ اسْتَعْمَلَهُ، فَقَدْ غَشَ اللَّهُ، وَغَشَ رَسُولَهُ، وَغَشَ جَمَائِهَ الْمُسْلِمِينَ...)، والمتأمل في هذا الزَّمن، والناظر في واقع المسلمين اليوم، يجد أنَّ كثيراً من الأعمال يتولَّها أناسٌ ليسوا أهلاً لهذا المكان، لا يخافون الله ولا يهابونه، فكيف تسير سفينة الحياة مع تلك الفئة من الناس؟!

روى الإمام أحمد في مسنده، عنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، قالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ حِينَ بَعَثَنِي إِلَى الشَّامِ: يَا يَزِيدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسِيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَحَافَ عَلَيْكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَنْ وَلَيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَأَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَحَدَا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبِلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ...)، فتذكروا رحمة الله في حال المسلمين اليوم ، والواقع الأليم الذي تعيشه الأمة في هذا الزَّمن، من توسيدِ الأمْرِ لغير أهله، الذين يستغلون مناصبهم

لاستغلال المسلمين، والذين لا يأبهون بأكل الرّشوة بالباطل، وتأخير معاملات المسلمين، والذين لا يتورّعون عن الظّلم والعدوان، ومع ذلك تجدهم قد تسنموا قمم المراتب، وأعلى المناصب، فأين العزة والفلاح؟ وأين الرّفعة والصلاح التي ينشدها المسلمون في كلّ مكان مع هذا التّفريط في الأمانة؟!

رسالة إلى كل مؤمنٍ:

أيّها المسلمون:

على الموظف والمرؤوس، وعلى العامل والخادم، أن يؤدي كلّ منهم العمل المنوط به على أكمل وجه وأحسنها، فذلك من الأمانة، ولا بدّ أن يستنفد جلّ وقته، وكلّ جهده في إكمال عمله وتحسينه، أمّا من فرط في أداء عمله المنوط به، كمن يأخذ الباقي دون علم صاحب العمل، أو من يقوم باستخدام آلات العمل وأجهزته ومعداته من أجل مصالحه الشخصية، أو من يأخذ شيئاً من عمله لبيته أو لغيره دون إذن مسبق، أو يسرق آلات الحرب ومعداته من عمله، أو يؤخر معاملات المسلمين من أجل حفنةٍ قدرةٍ من أواسع الدنيا، أو يقبل الواسطات، أو يقدم نفسه في العطايا، فتلك الأعمال وغيرها من الخيانة والغلوّ والعياذ بالله، قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلِبْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، عَنْ عَدَيِّ بْنِ عَمِيرَةِ الْكَنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (مَنْ اسْتَعْمَلَنَا هُنَّا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلِ فَكَتَمَنَا مُخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يُنْظَرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبِلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: وَمَا لَكَ، قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَّا، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ مَنْ اسْتَعْمَلَنَا هُنَّا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلَيْجِي بِقَالِيْهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتَى مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نَهَى عَنْهُ أَنْتَهِي) [5]

6- إذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: (أَيْنَ أَرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟) قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاقْتُنَّظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: (إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاقْتُنَّظِرِ السَّاعَةَ) [6]

فَلَوْ تَعْنَى فِي حَدِيثِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُنْفَهُمْ أَنَّهُ يُشَيرُ إِلَى قَانُونٍ مِّنْهُ لِلْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ؛ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَمْرِ لِغَيْرِ أَهْلِهِ؛ يَعْنِي الْخَرَابِ وَالْدَّمَارِ لِذَلِكَ الْمَجَمِعِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ ذَلِكَ.

7- غياب الأمانة يعقبه بلاء تصدر الروبيضة:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ بَيْنَ يَدِي السَّاعَةِ سَيِّنَ خَوَادِعًا، يَتَهُمُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمِنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَكْذِبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ النَّاسِ الرُّؤْبِيْضَةُ)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الرُّؤْبِيْضَةُ؟ قَالَ: (السَّفَهِيَّةُ يَنْطَقُ فِي أَمْرِ الْعَامَةِ) [7]

قال الإمام الشاطبي: "قالوا: هو الرجلُ التَّافِهُ الْحَقِيرُ يُنْطِقُ فِي أُمُورِ الْعَامَةِ، كَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي أُمُورِ الْعَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ". ومن مجموع هذه الصفات، وما توحى به نرى أنَّ الحديث يشير إلى صنفٍ من النَّاسِ لَا يهمُهُمْ أَمْرُ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُمْ أَصْحَابُ أَهْوَاءِ دُنْيَا وَدُنْيَا، يرْفَعُونَ رَأْيَاتِ جَاهِلِيَّةٍ، وَيَدْعُونَ إِلَى مِبادَئِ ضَالَّةٍ هَدَامَةٍ، وَيَتَطَلَّبُونَ التَّزَعُّمَ عَلَى النَّاسِ وَالرَّئَاسَةِ، يَشِيرُونَ إِلَى ذَلِكَ وَصْفَهُمْ بِالْتَّفَاهَةِ وَالْفَسْقِ وَالْحَقَارَةِ، فَلَيَسُوا مِنْ طَلَابِ الْحَقِّ، وَلَا مِنْ مُلْتَمِسِيهِ بِصَدْقٍ، وَإِنَّمَا هُمْ مِنَ الْأَدْعِيَاءِ الْكَانِبِينَ، الَّذِينَ لَا تَخْفِي أَحْوَالُهُمْ عَلَى أَدْنَى ذِي بَصِيرَةٍ، وَلَوْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَدَافِعُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَنْصُرُونَهُ.."

إنهم أئمة الضلال، ومن والاهم، الذين ابْتُلِيتَ بهم هذه الأمة، وأتباع الأهواء والشهوات، وقادة الضياع الفكري، والانحراف السلوكي، والفساد والإفساد الأخلاقي في الأرض، يؤازرهم المنافقون المتشدّقون، والجهلة بدين الله المغفلون، الذين قد يلبسون لباس العلم والهدى، ولكنهم يبيعون دينهم بعرضٍ من الدنيا، يستخدمون علمهم لتبرير الفساد، والتماس الأعذار للسقوط والانحراف، وخلط الحق بالباطل، حتى تضيع معالم الحلال والحرام، والمعروف والمنكر في نظر العامة..

ويتصدر هؤلاء ميادين العمل الاجتماعي، والمسؤوليات الكبرى، في الوقت الذي ينزوئ الأخيار عن الساحة، أو يفرض عليهم الإقصاء، ويصبح أهل الحق قابضين على الجمر، يُحاربون من أقرب الناس إليهم، ولا يجدون على الحق أعواناً. وتنقطع الجسور بين أولي العلم والبصيرة بدين الله، والغيرة على حرماته، وبين هؤلاء من أولي الظلم والقهر، الذين يمسكون بزمام الأمور، فلا يبقى بينهم إلا التنازع والصراع، الذي ربما يخفت تارة، ويتأجّج تارة أخرى، وتكثر الخروق في سفينة المجتمع وتتسع، فلا يكاد أهل الحق يعالجون أمراً حتى تفاجئهم أمور..

8- ويضيع العلم، ويتصدر الروبيضة:

ففي زمن الروبيضة تجد الأصغر هم الذين يتصدرون للتعليم والفتوى، عن أبي أمية اللخمي أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثَةً: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمِسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ). [8]

يقول ابن القيم رحمه الله واصفاً حال المتعالمين: "انتكست عليهم قلوبهم، وعمي عليهم مطلوبهم، رضوا بالأمانى، وابتلوا بالحظوظ، وحصلوا على الحرمان، وخاضوا بحار العلم لكن بالدعوى الباطلة وشقاشق الهذيان، ولا - والله - ما ابتلت من وسله أقدامهم، ولا زكت به عقولهم وأحلامهم، ولا ابيضت به لياليهم وأشرقت بنوره أيامهم، ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذ بلت بمداده أقلامهم، أنفقوا في غير شيء نفائس الأنفاس، وأتعبوا أنفسهم وحيروا من خلفهم من الناس، ضيّعوا الأصول فحرموا الوصول، وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا في مهامه الحيرة وباء الضلاله".

ويقول رحمه الله: "وقد رأى رجل ربعة بن أبي عبد الرحمن بيكي فقال: ما يبكيك؟ فقال: استُفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال: ولبعض من يُفتقى ها هنا أحق بالسجن من السُّرُّاق". قال بعض العلماء: فكيف لو رأى ربعة زماننا وإقدام من لا علم عنده على الفتيا، وتوبيه عليها، ومدّ باع التكالُف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها، مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشُوئُ السريرة، وهو من بين أهل العلم مُنكر أو غريب، فليس له في معرفة الكتاب والسنة وأثار السلف نصيب، ولا يبني جواباً بإحسان وإن ساعد القدر فتواه كذلك يقول فلان بن فلان.[9]

خناكسُ الأرض تجري في أعيتها * * وسابعُ الخيل مربوطٌ إلى الودِ
وأكرمُ الأسدِ محبوسٌ ومُضطهدٌ * * وأحرقُ الدودِ يسعى غير مضطهدٍ
وأتفهُ الناس يقضي في مصالحهم * * حكمُ الروبيضة المذكور في السندي
فكم شجاعٌ أضعاف الناسُ هيبيته * * وكم جبانٌ مهابٌ هيبة الأسدِ
وكم فسيحٌ أمات الجهلُ حجته * * وكم صفيقٌ له الأسماعُ في رغدِ
وكم كريمٌ غداً في غير موضعه * * وكم وضعٌ غداً في أرفعِ الجددِ
دار الزمان على الإنسان وانقلباتُ * * كلُّ الموازين واختلَتْ بمستندِ

في الوقت الذي تجتاح فيه ثورات الأحرار أقطاب الوطن العربي، وترفض الشعوب الاستسلام لطغيان أنظمتها فتهب ل تسترد كرامتها وحريتها المصادرية والمفترضة من قبل تلك الأنظمة الجائرة، تجد أنّ عجلة الإصلاح تتراجع عصراً للوراء، ويصبح المواطن مهمناً مظلوماً مبغياً عليه، ويصبح الوطن مُداراً من قبل أناسٍ (يسودوا قبل أن يتفقّها).

نعم.. ففي زمن الروبيضات تجد الأمانة مضاعةً والأمر يوسم إلى غير أهله، وفي زمن الروبيضة يصبح الناس فوضى لا حكماء يقودونهم، بل تكون القيادة للجهال وأنصار المتعالمين، وفي زمن الروبيضة يصبح من لا عقل لهم ولا حلم لديهم هم أهل الوجاهة والتصدر والقيادة، ويصبح العقلاه الحكماء الحلماء هم الغباء، وفي زمن الروبيضة يسخر الإعلام أجهزته المرئية والمسموعة لأخبار أهل الفن والرياضة والمنافقين، ويتجاهل أخبار أهل العلم والإبداع والمصلحين.

-
- 1 - [مجموع الفتاوى] (28/246).
 - 2 - رواه مسلم (4/1973).
 - 3 - مجموع الفتاوى: 248-249.
 - 4 - أخرجه أحمد بسند حسن.
 - 5 - أخرجه مسلم.
 - 6 - أخرجه البخاري
 - 7 - أخرجه الطبراني وأحمد.
 - 8 - رواه الطبراني في المعجم الكبير؟ وصححه الألباني (2207) في صحيح الجامع؟
 - 9 - إعلام الموقعين 4/186.

المصادر: